السياسة الاستعمارية وإجراءاتها ضد التعليم العربي الاسلامي في الجزائر

أ/سعودي أحمد

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

جامعة عمار ثليجي –الأغواط

مقدمة:

كانت فرنسا قد شرعت في إحتلال الجزائر سنة 1830م، وأخذت في تثبيت إستعمارها لها، ولكنه لم يكن احتلالا كغيره من أشكال الاحتلال(...)فهو لم يقف عند إغتصاب المستعمر للدولة والإدارة التي كانت للجزائريين على أرض وطنهم، وإنما ذهب المستعمر الفرنسي أكثر من ذلك، فأراد سحق الهوية القومية للشعب، وإلغاء عروبتهم،لأنها رمز مُغايرتهم للفرنسيين ،وهو قد أراد بذلك أن يكونوا فرنسيين، حتى لايكون وطنهم مستعمرة فرنسية، وإنما الإمتداد الإفريقي للوطن الفرنسي عبر البحر الأبيض المتوسط(...)كما ذهب المستعمر أيضا إلى مسخ الإسلام، حتى يزيل طابعه القومي العربي في البيئة العربية الجزائرية وينزع منه عوامل المقاومة، فيتحول من شوكة بحلق الاستعمار إلى قيد يثقل خطى المناضلين في سبيل الحرية والاستقلال....."[211].

وعليه فإن هدف الاستعمار كما يُقر أحد مفكري الاستعمار الفرنسي ،الكاتب الصهيوني (ماكس نوردو) هو:" إن شمال إفريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية وأما سكانه الأصليون فسيدفعون نحو الجنوب إلى الصحراء الكبرى إلى أن يفنوا هناك".

وضمن هذا السياق وضعت فرنسا مجموعة من الآليات لتحقيق مشروعها بفرنسة الجزائر واعتبارها جزء لايتجزأ من فرنسا الأم،وقطع أية صلة للجزائر ببعديها العربي والإسلامي ،ولاشك أن التعليم كان من أوائل القطاعات المستهدفة ، من طرف المستعمرين ،فهو الذي يبني ويُحصن هذه الشخصية العربية الاسلامية للجزائريين.

سلكت فرنسا منذ البداية سياسة إقصاء اتجاه أبناء الجزائر تعتمد على التجهيل والأمية، حتى يمكنها أن تحكم سيطرتها التامة عليهم ولم تسمح لهم بالتعليم، إلا في حدود ضيقة للغاية.[212]

ووجهت فرنسا الضربات المتتالية ، للتعليم العربي الاسلامي في الجزائر والذي اكدت كل الدراسات التاريخية المختصة ،انه كانت في حالة جيدة قبل الاحتلال،فقد كان التعليم ذو مستوى رفيع، يشع في كل أنحاء القطر[213] وفق مجموعة من الإجراءات ،نستعرض فيما يلي أهمها:

1/ إعتباراللغة العربية لغة اجنبية:

---

[211]– محمد عمارة، تحديات لها تاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 1982، ص 249.

[212]– عمار عمورة ، موجز من تاريخ الجزائر ، ط1 ، دار ريحانة للنشر والتوزيع ، الجزائر 2002 ، ص126.

[213]– y,Turin,Affrontement culturels dans l'Algérie coloniale,ecoles,médcines,religion,1830-1880,Paris,1971,p132.

إذا كانت اللغة بمثابة القلب النابض والروح الحية من أي شعب، ووعاء أنشطته الثقافية والحضارية، وأحد مقومات وحدته، فإن فرنسا عملت على إقصاء وقتل اللغة العربية وفرض لغتها على الشعب الجزائري لنسف وحدته وإغتيال شخصيته وإخضاعه لنفوذها .

وفي ذلك موقف واضح ليس من اللغة العربية فقط ،بل من الاسلام أيضا، فاللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ، والوعاء الذي حفظ الحضارة العربية الاسلامية مع مر العصور، وهو أيضا موقف سياسي ،على إعتبار أن اللغة العربية ،كانت اللغة الرسمية في الجزائر في الفترة العثمانية ،بإستثناء الجهاز المركزي في العاصمة الجزائر،فإن إدارة الأقاليم والأوطان والجماعات والمحاكم والمدارس ،كانت كلها بالعربية،وعليه فأن إحلال اللغة الفرنسية بدل اللغة العربية في إدارة البلاد ،هو نسف لأحد أركان سيادة الدولة الجزائرية.

وعلى سبيل المثال فإن رئيس وزير داخلية فرنسا الماسوني "كميل شوطون " أصدر في 1938/03/08م مرسوما يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ، وهو القرار الذي جاء ليؤكد حقيقة واقعة منذ أمد بعيد، وقد إتخذ كل ذلك ذريعة عدة مرات لإيقاف صحف جمعية العلماء ومدارسها ومحاكمة معلميها ورجالها و إخماد سائر انشطتها.

وبصدور قرار 1938م بلغت محاربة اللغة العربية والتعليم العربية ذورتها، فالشيخ "محمد خير الدين"، أحد القادة البارزين في جمعية العلماء يصف هذا القانون بأنه يجعل التعليم العربي بالمستحيل ويشكل ضربة قاتلة للدين الإسلامي .[214]

وكان كل ذلك في غطار سعي المحتل الفرنسي لتحقيق فرنسة الجزائر لغويا بإحلال الفرنسية محل العربية فقدكتبت أحد التقارير التي وضعت سنة 1847 "إن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها والعمل الجبار الذي يتحتم علينا انجازه هو السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية وهذا هو السبيل لانتمائهم إلينا وتمثيلهم بنا وإدمجاهم فينا وجعلهم فرنسيين... .[215]

2/ محاربة التعليم العربي الإسلامي :

لم تتقبل فرنسا في الجزائر وجود ما يعرف بالتعليم العربي الاسلامي،باعتباره منتجا للتعصب والتطرف لدى الجزائريين، ومحركا لأحاسيسهم المناوئة للإحتلال ،فكثير من المقاومات كانت تخرج من رحم الرباطات والزوايا والكتاتيب، وتتكون جيوشها من طلبة التعليم العربي الاسلامي ومن يقودهم هم شيوخ الزوايا وعلماءها،فشرعت فرنسا في عرقلة التعليم العربي الاسلامي وكل محاولة لفتح المدارس الداعمة له، بمقتضى عدد من القوانين والقرارات الجائرة التي تنم عن حقد أعمى لكل ما يخدم العلم والتحضر في هذه البلاد، و فكانت قوانين تخنق كل جهود التعليم لدى الجزائر مثل:

[214] – محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1997، ص26.

[215] –محمد عمارة ، المرجع سابق،ص94.

- قانون الأهالي: الصادر في 28 يونيو 1881م
- قانون 18 يناير 1887م: الخاص بتنظيم التعليم العام.
- قانون 18 أكتوبر 1892م: الخاص بتعليم الأهالي الجزائريين الابتدائي العام والحر.
- قانون 27 سبتمبر 1907م/ قانون 8مارس 1938م. المتعلق بمراقبة المساجد والكتاتيب الأهلية.
- قانون 6 أغسطس 1943م: الخاص بفتح المدارس الحرة الإسلامية.
- قانون 27 نوفمبر 1944م: الخاص بتسيير التعليم الحر في الجزائر.[216]

وكلها قانون تجتمع على فلسفة ان الجزائريين أهالي" Indigénes"لا يرقون إلى رتبة المواطنة والتي تتيح لهم العديد من الحقوق ومنها حق التعليم.

فقانون 1884/12/24م مثلا، نص على أنه يُمنع على أي جزائري أن يفتح أو يتولى إدارة "مدرسة عربية أو كتاب أوتعليم القرآن الكريم، إلا بترخيص خاص من عامل العمالة ، وينذر هذا القانون كل فرد أو جماعة تقوم بفتح مدرسة عربية بدون ترخيص مسبق من إدارة الاحتلال إما بالسجن أو بالغرامة.[217]وقد فرضت الرقابة على المدارس أيضا بموجب منشور ميشال[218] الصادر في عام 1933م،وهو عبارة عن تعليمات إدارية موجهة إلى رجال الأمن والإدارة الفرنسية في شتى نواحي القطر بمراقبة العلماء والتضييق عليهم ومنعهم من أداء مهمتهم الدينية وتعليم اللغة العربية بدعوى أنهم يبثون المبادئ الوهابية والمذهب الشيوعي[219]

3/مصادرة الأوقاف والمدارس الاسلامية

إضافة إلى الإجراءات المتخذة من السلطات الفرنسية لطمس معالم الشخصية الجزائرية وتجهيل شعبها، لجأت فرنسا منذ أن وضعت أقدامها على التراب الجزائري ، إلى محاربة ومصادرة معظم المؤسسات الوقفية الإسلامية في أنحاء الجزائر ،باعتبارها الراعي والممون الرئيسي للنشاطات الدينية والتعليمية في الجزائر منذ عهود طويلة، ولأنها تشكل عائقا كبيرا يحول دون نجاح المخطط الاستعماري في فرنسة وتنصير الجزائريين وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين إلى القول " إن الأوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتنافى مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر[220] " وكان الاستعمار في ذلك مخالفا لنصوص معاهدة

---

[216]- الابراهيمي ،مصدر سابق، ص433.

[217] -جاكر لحسن ،جمعية العلماء المسلمين الجزائرين في مدينة معسكر1931-1956،دار العرب للنشر،2003،ص199.

[218] – ميشال، كان يشغلمدير الشؤون الأهلية والكاتب العام الولاية الجزائر، العامة أنظر: جاكرلحسن جمعية العلماء المسلمة الجزائريين في مدينة معسكر، 1931-1956 ،دار العرب ، للنشر، 2003،ص199.

[219] – مما يؤكد تخبط الادارة الفرنسيبة عندما تتهم المدارس العربية الاسلامية في الجزائر ،خاصة مدارس جمعية العلماء المسلمين ، بنشر الشيوعية.

[220] – عمار عمورة المرجع السابق صص 124-127

الاحتلال التي إلتزم فيها كاذبا باحترام المقدسات الدينية والثقافية للجزائريين[221]. والتي تعهدت فيها فرنسا بإحترام مؤسسات الجزائريين الدينية ومنها المساجد والزوايا[222]، ففي 8سبتمبر 1830م أصدرت السلطة الفرنسية مرسوما يحدد ملكية الدولة و يسمح لها بالاستيلاء على أملاك الأتراك وما تركوه من أملاك وقفية، وفي 7ديسمبر 1830م أصدر الجنرال كلوزال[223] قرارا أخر يبيح بانتقال الاحباس إلى المعمرين الفرنسيين،ليظهر القرار الأخطر سنة 1873م والذي بموجبه، صودرت نهائيا كل أملاك الأوقاف .[224]وهو ما شكل ضربة قاسية لكل من التعليم العربي الاسلامي والممارسات الدينية وحتى مظاهر التضامن الاجتماعي في الجزائر،و التي كانت تعتمد بشكل كبير على هذه الأوقاف المختلفة ، تموينا وتأطيرا.

ونتيجة لهذا التصرف الاستعماري أغلقت السلطات الفرنسية سنة 1830 في مدينة الجزائر لوحدها 13 مسجدا كبيرا و32 جامعا و12 زاوية ،وتم تحويل العديد من المساجد إلى إسطبلات ومستودعات ومستشفيات عسكرية وكنائس ومن بينها مسجد كتشاوة المشهور الذي حوله الجنرال " دي روفيقو [225]" سنة 1832م إلى كنيسة نصب الصليب وعلم فرنسا على الصومعة بمباركة البابا غريغوار رغم معارضة المفتيين والسكان الذين سقط العديد منهم قتلى دفاعا عن المسجد .

وهكذا أصبحت أملاك الوقف الإسلامية تخدم العمليات التبشيرية المسيحية التي ارتبطت بالاحتلال منذ الوهلة الأولى، ففي سنة 1835م إستقر بالجزائر العاصمة أخوات القديس يوسف ومن بعدهم الراهبات والثالوثيات والجزويت وشرعن في عملهم التبشيري إلى غاية 25 أوت 1938 حيث أسست أسقفية الجزائر وتزايد عدد رجال الدين بتزايد عدد المستوطنين الأوربيون[226].

ويلاحظ أن موقف الاحتلال من اللغة العربية والثقافة العربية والدين الاسلامي كان منسقا ومدروسا ،يهدف إلى القضاء عليها في آن واحد تماشيا مع السياسة الفرنسية في شقها الديني والثقافي القاضي بفرنسة

---

[221] – تركي رابح ، *التعليم القومي العربي الاسلامي والشخصية الجزائرية*(1830-1962)،ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، *الجزائر*. 1981، ص 103.

[222] - أنظر نص االبيان في ،أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية،دار البصائر ،الجزائر ،2007،صص،421-422.

[223] –الجنرال كلوزيل: تولى الجنرال كلوزيل قيادة الادارة الفرنسية في الجزائر مرتين، الأولى سنة 1830م-1831م والثانية 1835م-1836م، وكان شديد الحماس للاستعمار ،ولذلك شن حملة صد الجزائريين المعارضين للاحتلال الفرنسي فنفى بعضهم إلى المشرق ،ونفى آخرين إلى فرنسا وشرد وسجن الباقي في الجزائر نفسها (أنظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع،شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009،ص139.

[224] – عمار عمورة المرجع السابق ص 124

[225] – دي روفيقو: الدوق دور وفيقو وإسمه سانوري رونبه دوق 1774م- 1833م تولى منصب وزير السرطة أيام تابلبون بونابرت، ثم حاكما للجزائر أأظر: بسام العسلي ،عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ،دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر 2010، ص31.

[226] – عمار عمورة ،المرجع السابق،ص124.

وتنصير ، فقضي على معظم مراكز الثقافة العربية واللغة العربية التي تتمثل في المدارس والجوامع والزوايا القائمة في البلاد قبل الاحتلال على لتبدو الصورة قاتمة وكارثية فقد كان في مدينة قسنطينة مثلاقبل دخول الاحتلال إليها عام 1837م (80مدرسة و7معاهد و300 مدرسة وزاوية) لم يبق منها بعد الاحتلال سوى 30 مدرسة فقط[227] .

4/ إنشاء المدارس الدينية المسيحية :

تأسست هذه المدارس إبتداء من سنة 1878م، حيث كان يسيرها رجال دين مسيحيون لتقوم مقام المدارس الرسمية في خدمة المجهود الاستعماري ولكن بوسائا اقل عنفا وأكثر تدميرا ،لأنها تدمر الانسان الجزائري العربي المسلم من الداخلعبر تحطيم مقومات شخصيته الحقيقية،حيث فتحت أبوابها للتلاميذ المسلمين في بعض المناطق الجزائرية كمنطقة القبائل الكبرى[228] التي سجل فيها 21 مدرسة مسيرة من طرف الاباء الابيض يدرس فيها 1039 تلميذا حتى من مناطق داخلية مثل البيض وورقلة قصدتفريخ جيل من الجزائريين سيخدم الصليب مستقبلا ومن كل أنحاء الجزائر، وتجريد بعض النواحي من ثوب العربية والدين، وكان هذا التعليم مفصول عن الحكومة له صبغة تربوية مهنية لاتخلوا من الطابع التبشيري والتمسيحي مشجعا من طرف السلطات الاستعمارية عكس تعليم القرآن والمبادى الإسلامية واللغة القومية لأبناء شعب ينتمي إلى حضارة عريقة عربية إسلامية .

كماأنشأت ثلاث مدارس حكومية بموجب مرسوم مؤرخ في 30-09-1850م قصد إبعاد الجزائريين عن تعلم كتاب الله وتحفيظه في الزوايا التي كان الاستعمار يراها خطرا عليه وبهدف تكوين أعوان له من الجزائريين يسهلون تحكمه ومراقبته للجزائريين عبر الادرات والمكاتب العربية المختلفة التي كان يحتاج فيها للعنصر الجزائري في مواجهة أخيه الجزائري، وفي البداية شيدت هذه المدارس كل من تلمسان وقسنطينة والمدية ثم حولت إلى العاصمة سنة 1859م وقد نجحت في تكوين مرشحين للوظائف الدينية أو التعليمية لمن إرتضت فرنسا تكوينهم وتوظيفهم من المتعاملين معها ولخدمتها.

إلى جانب تأسيس المدارس المسماة بالعربية الفرنسية بموجب قرار مؤرخ في 14-07-1850م بلغ تعدادها 40 مدرسة ابتدائية على مستوى كل واحدة منها قسم واحد لتعليم الجزائريين وقد بنيت مابين 1850 إلى 1873 ثم أغلق معظمها اثر حوادث 1871م أين ألغيت نهائيا سنة 1883 أي السنة التي أحدثت فيها القوانين الفرنسية المتعلقة بإجبارية التعليم العمومي المجاني حيث بلغ عدد التلاميذ 4095 تلميذا وبطبيعة الحال فالمعمرين الفرنسين كانوا يعارضون كلهذه التدابير التي تظهر اهتماما لفائدة تعليم أبناء الجزائر وكانوا يعارضون فرنستهم لكي لا يصبحوا سواسية معهم يتمتعون بحقوق الحاملين للجنسية الفرنسية.

---

[227] – نفسه ،ص103.

[228] – وظفت فرنسا العامل العرقي في التفرقة مابين الجزائريين مدعية أن البربرفي الجزائر هو من أصول أوروبية ومسيحية،فيما إعتبرت العنصر العربي والاسلام عنصرا غازيا لمنطقة شمال إفريقيا.

لكن الكثير من لجزائريين قرروا مقاطعة هذه المدارس الفرنسية وعدم تسجيل أبنائه فيها لأنها لا تحقق أهدافه ولا تلائم تقاليدهم بل هي ضد الحضارة العربية الإسلامية وتقصد الفرنسية وتمسيح الجزائريين .

5/ نفي العلمـاء

عامل الاستعمار الفرنسي العلماء والمثقفين الجزائريين المناهضين لسياسته بقسوة شديدة، فقام ضدهم بالتمثيل والنفي والزج في السجون، حتى أنه طارد واضطهد كل عالم للحيلولة تأدية واجبه نحو المجتمع.[229] ومن أوائل المثقفين والعلماء الذين قامت فرنسا بنفيهم نذكر حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب المرآة ومحمود ابن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود

حمدان بن عثمان خوجة :

ينتمي حمدان بن عثمان خوجة الى أسرة جزائرية عريقة كانت تمتلك الاراضي الشاسعة في سهول متيجة فكان والده حمدان فقيها وأمينا عاما للإيالة (مكتابجي) يشرف على الحسابات الادارية و(الميزانية)[230].

ولا تحدد الوثائق والكتب والمجلات التي تكلمت عن حمدان تاريخ ميلاده، وحسب ماقاله هو بنفسه أنه عاش في الجزائر إلى ان بلغ 60 من عمره وعلمنا انه غادر البلاد نهائيا سنة 1833م فيمكن القول انه ولد في حدود 1773 م ،وقد نشا حمدان نشأة مرضية في جو مناسب للتعلم ومساعد على التثقف .

وحفظ حمدان كتاب الله عز وجل وأخذ بعض المبادئ في العلوم الدينية على يد والده وتكون وهو في سن الحادية عشرة [231].ليرافق سنة 1784 م خاله إلى اسطنبول وبعد رجوعه شرع في الدراسة الثانوية والعالية تحت إشراف والده الى جانب أنه تتلمذ على يد أستاذه آخرين.

نجح كل ذلك في أن يجعل منه شخصية متعلمة وواعية ،وبالإضافة إلى تبحره في العلوم وغوصه في ميادين المعرفة فإنه قد إهتم بإتقان اللغات إلى جانب العربية حيث كان يجيد التركية إلى جانب انه كان يتكلم الفرنسية والانكليزية بطلاقة لكنه لم يكن يجيد الكتابة (أي اللغتين السابقتين وامام هذه الثقافة الواسعة كان حمدان خوجة من القلائل الذين تركوا للمؤرخين والباحثين عددا من الوثائق الهامة حول مأساة الجزائر والمصائب التي أصابت أبنائها وكذلك بعض الرسائل في الفلسفة والطب والتصوف[232] .

ولما رأى حمدان خوجة تمادي سلطات الاحتلال في السلب والنهي والتنكيل العشوائي بالشعب الجزائري ومصادرة أملاكه، تخلى حمدان خوجة عن مواقفه المهادنة للاستعمار فأعلن بصراحة رفضه لتلك الممارسات كما عارض بشدة الاستيلاء على المساجد التي كانت تهدم أو تحول فيما بعد إلى كنائس ومرافق إدارية بل وحتى إلى مرابط للخيول وقد راسل السلطات الفرنسية في الجزائر وفي باريس مطالبا أيها بوقف تلك المظالم والاعتداءات في

---

[229] –محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، الجزء الأول، مطبعة إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999،ص20.

[230] –حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تعريب: محمد العربي الزبيري، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007،ص11.

[231] – نفسه ، ص12.

[232] –حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق، ص ص12-15.

حق الجزائريين وباحترام المواثيق والعهود التي أعطتها لهم في معاهدة الاستسلام التي أمضاها الداي حسين والقائد الفرنسي دي بورمون، في 5جويلية 1830م ويروي حمدان خوجة أنه حين احتج لدى الجنرال كلوزيل عند خرق الجيش الفرنسي لشروط المعاهدة أجابه كلوزيل " فرنسا غير مجبرة على احترام هذا الاتفاق لأنه لم يكن في نضرها سوى لعبة حرب.

ورغم أنه سبق له أن قبل بأداء بعض المهام الصالح فرنسا إلا أنها لم تقضي على شعوره الوطني فضل يناضل من أجل تحرير بني قومه واسترجاع سيادتهم وهذا ماجعل المعمرين يتآمرون عليه ويكثرون من الشكايات ضده، واتهموه أنه يدافع عن المفتي الحنفي وبأنه يشيع وينشر بين الناس أخبارهزيمة الفرنسيين ونتيجة لمواقفه السياسية الجريئة ودفاعه المستميت عن مصالح الشعب ومقدساته عزلته سلطات الاحتلال من وظائفه وضيقت الخناق عليه وجردته من أملاكه ثم قامت بنفيه سنة 1833 م كما نفت عددا لايستهان به من أعيان ومثقفي مدينة الجزائر .[233]

إلى جانب ذلك ساهم حمدان في تشكيل اللجنة الإفريقية في السابع من شهر جويلية سنة 1833م وقام بتزويد هذه اللجنة بمعلومات قديمة فبدا أولا في كتابة المرآة الذي يعتبر مصدرا أساسيا لكتابة التاريخ الجزائر في الثلث الأول من القرن التاسع عشر وأرسل منه نسخة إلى أعضاء اللجنة أرفقها برسالة يناشدهم فيها بالقيام بالعدل والاتسام بالنزاهة، ومن باريس أيضا قام بمراسلة السلطان العثماني واعيان دولته طالبا منهم أن يتدخلوا لإنقاذ الشعب الجزائري من براثن الاستعمار بالإضافة إلى هذه الاتصالات بالمسؤولين الفرنسيين وبالباب العالي كان حمدان يبحث عن المعونة في أماكن أخرى من مختلف العالم .[234]

فشخصية حمدان خوجة تعتبر من ألمع وجوه المقاومة السياسيةفي الجزائر إلى أن غادرها مكرها نحو باريس متوجها إلى القسطنطينية عن طريق ماتز يوم 28 يوم 1836 م ليتوفي هناك في الفترة ما بين 1840م و1845 م[235]

أما ابن العنابي و اسمه الكامل هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري وشهرته ابن العنابي، ولعل جده الحسين هو الذي أخذ هذه التسمية أولا وتولى الإفتاء الحنفي كمنصب لشيخ الإسلام لايفوقه بذلك في الاعتبار سوى الداي أورئيس الدولة ،وأشتهر جده الادنى محمد بن حسين بالعالم وحظي بالتقدير الكبير ،مما رشح ابن العنابي للوظائف الكبرى ، تساعده في كل ذلك امكانياته الفكرية التي فرضت احترامه وتقديره أما أبوه فهو ابن العنابي حسين فقد كان فقيها ومفسرا

وتثقف ابن العنابي ثقافة واسعة منذ صغره، فهو حافظ وناقل أكثر منه مفكر ومجتهد فقد تلقى العلم في وطنه على يد جده وعلى والده كما تلقاه على يد المفتي المالكي على بن عبد القادر بن الأمين في زمانه، فكان

---

[233] – سليمة كبير، حمدان بن عثمان خوجة: أول ناطق باسم القضية الجزائرية، المكتبة الخضراء للطباعة والنشر، الجزائر،ص22.

[234] –حمدان خوجة، المصدر السابق، ص42.

[235] –نفسه،ص 43.

عميق الثقافة سواء منها تلك التي تمت بالصلة إلى العلوم الدينية أو علوم الدنيا[236]. أما وظائفه فكان أولها منصب القضاء الحنفي الذي ولاه اياه احمد الباشا (1805-1808م)،بالإضافة إلى مهمة ثانية وهي الكتابة إلى باي تونس ويختفي اسم ابن العنابي ولا يعود إلا في عهد عمر باشا (1814م-1816م) الذي كلفه بسفارة المغرب الأقصى وبذلك يتضح أن ابن العنابي لم يكن مجرد عالم بالفقه ومايليه من علوم الدين بل كان أيضا دبلوماسيا ناجحا وخبيرا لشؤون الدول وقد أخذت وظيفة المفتي تتعرض إلى تقلبات خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر، فأضحى ابن العنابي نتيجة لذلك موضع شبهة من سلطات الاحتلال خاصة عندما أجبره كلوزيل على تسليم بعض المساجد لجعلها مستشفيات للجيش، وقد اتسمت لهجة ابن العنابي بالنقد اللاذع للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداي حسين باشا والكونت دي بورمون مما جعل كلوزيل يضيق به ذرعا فاعتزم على وضع حد له فتم إلقاء القبض عليه من طرف رجال الدرك وقادوه إلى السجن ،كما أهينت أسرته بدعوى تدبير مؤامرات ضد الفرنسيين و السعي لإعادة الحكم الإسلامي إلى الجزائر ثم قرر كلوزيل نفيه من الجزائر في مهلة ضيقة ،ولم يحصل له حمدان خوخة على مهلة عشرين يوما من اجل أن يبيع أملاكه[237].وتصفية ديونه إلا بصعوبة كبيرة ثم ترك وطنه منفيا،لأخر مرة قبل نهاية 1831 وانتهى إلى مصر فأقام بالإسكندرية حيث ولاه حاكمها القضاء والافتاء الحنفي والمالكي، وألتف حوله تلاميذ وعلماء من الأزهر بعد أن تصدر لتدريس الحديث والفقه فأجاز الكثيرين من تلاميذه في مصر وتونس وغيرهما .[238]

توفي المنفي الجزائري ابن العنابي بمصر سنة 1851 م ومن أهم مؤلفاته التي تركها " السعي المحمود في نظام الجنود " ويشرح في هذا الكتاب نظم الجيش الحديث وضرورة الأخذ بالأسباب الحضارية حتى لا يبقى العالم الإسلامي فريسة سهلة لأطماع الأروبيين وغزوات جيوشهم المنظمة والقوية .[239]

6/تهريب الكتب ولا مخطوطات

نهب الاحتلال التراث الثقافي العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية من مخطوطات ووثائق وكتب ،فقد قام ضباط جيش الاحتلال الفرنسي وجنوده، ينهبون المكتبات الجزائرية سواءا كانت عامة أو خاصة وذلك بإرسالها إلى ذويهم في فرنسا أوبيعها لتجار الكتب الأوروبيين إلى جانب المكتبات التي أحرقوها مثل مكتبة الأمير عبد القادر التي تمت بعثرتها وتدمير جزء كبير من محتوياتها .

ولعل اقسي تجربة مرت بها المكتبات الجزائرية هي الاحتلال الفرنسي وما رافقته من حروب وما نتج عنه من تخريب؛وقد روى الفرنسيون أنفسهم قصصا مثيرة عما وقع لمكتبات قسنطينة ومعسكر وتلمسان وغيرها إلى جانب

---

[236] – عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزءالرابع، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص349-352.

[237] –عبد المجيد بن نعيمة، المرجع السابق، ص265.

[238] – نفسه، ص266.

[239] –آسيا تميم، الشخصيات الجزائرية: 100 شخصية، دار المسك للنشر والتوزيع، الجزائر،2008،ص40.

ما وقع لمكتبة الشيخ ابن الفكون في قسنطينة،ثم ما وقع لمكتبات الجامع الكبير وغيره من المساجد وفي معسكر وتلمسان وبجاية والعاصمة وعنابة؛ ومكتبات الزوايا والمكتبات العائلية في مختلف انحاء القطر،فلا حصر للكتب التي أرسلها الفرنسيون هدية إلى مكتباتهم المحلية في فرنسا.

وكان بيرو بروجر قد رافق الحملة على قسنطينة وأخذ يجمع المخطوطات من المساجد وغيرها ومن أيدي الجنود بل حتى من الشوارع حيث كان لكل جندي قرآنه كما يقول ،وهو يعني بالقرآن كل كتاب مكتوب باللغة العربية وقد جمع حسب التقارير ما يزيد عن ثمانمئة مخطوط وعاد بها إلى مدينة الجزائر.ولكن قبل أن تصل إلى هناك ضاع منها الكثير في الطريق؛ومن بين هذه المخطوطات مجموعة من الكتب الرياضيين الاغريقين ومجموعة أخرى من علوم الفلسفة والطب وغيرها التي استفاد منها الجزائريون فائدة عظيمة[240]

وقد كانت الجزائر من أوائل البلدان السلامية التي أصيبت بالاستعمار الاقتصادي والفكري،فنهبت مكتباتها وبعثر تراثها العربي الإسلامي إلى جانب مكتبة القاضي الحنفي محمد العربي بن عيسى التي استولى عليها الفرنسيون أيضا عند دخولهم عنوة لمنزله.[241]

أما المخطوطات فأنها أيضا تبعثرت وأتلفت في معظمها؛وكانت هي أساس التعليم.[242]فالمستعمر قضى وخرب ونهب التراث العربي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائراية "كتب ؛وثائق ؛مخطوطات "؛فضلا عن المكتبات والكتب التي أحرقها وبعثرها[243]. هذا غيض من فيض مما قامت به سلطات الاحتلال في جبهة من جبهات حربها

---

[240]– أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ، دار البصائر ، الجزائر،2007، صص،304-305 .

[241] – سعد الله؛ج1 المرجع السابق؛ص312.

[242] – أبو القاسم سعد الله؛تاريخ الجزائر الثقافي؛ج3؛دار البصائر للنشر والتوزيع؛الجزائر؛2007؛ص25.

[243] – الزبير بن رحال؛الامام عبد الحميد بن باديس :رائد النهضة العلمية والفكرية 1889– دارالهدى للصباعة والنشر والتوزيع؛ الجزائر 2009،ص33